# الإلحـــاد الفكـــري في البحـــوث النفسيـــة العربيـــة

http://www.arabpsynet.com/Documents/DocMaskounAtheismIntellectual.pdf

مسكون بحب الوطن العربي *

arabpsynet.mail@gmail.com **

يثير تعبير "الإلحاد" استياءًا وضيقًا انفعاليًا قد يصل بالمرء إلى درجة الغثيان، لارتباطه مباشرة بالإلحاد الديني، وهو أمر مستنكر وإن كان غير مستغرب في حياتنا المعاصرة؛ نظرًا لتعدد صوره وتشكيلاته التي باتت تحيط بنا من كل جانب، وتزكم الأنف بكم غير محتمل من البذاءات السلوكية والرجس الأخلاقي.

فقد كنا وإلى وقت قريب نرفع أيدينا تضرعًا لله عند شهود تشييع جنازة شخص إلى مثواه الأخير ونردد تعبير "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إقرارًا بعبوديتنا وعبوديته لخالق بارئ مصور قادر ومقتدر رجاء عفوه ومغفرته، وتذكيرًا لأنفسنا بسنة الله في خلقه والمتمثله في كل شيء هالك إلا وجهه، وكل من عليها فانٍ.

وأصبحنا الآن مجبرون على ممارسة نفس الآلية لا على فقدان شخص بل على فقدان أمة تغنينا بمجدها وافتخرنا بمنجزها الإنساني لعقود طويلة، ولكن كل ذلك يُمْهَدْ له الآن بتعبير "كان" وهو تعبير ماضوي تُنْتِجْ عملية معايرته بأوضاعنا الراهنة مفارقة قيمية بغيضة تجسد متصل الفخر ــ الحسرة.

فهل حقًا فقدت ما كنا نسميها الأمة العربية حقيقتها الوجودية فكرًا وإنجازًا إنسانيًا؟ لا ريب في أن الإجابة بنعم!! ومع ذلك نعم المفعمة بيأس مهين لخصوصية الحالة والظرف والسياق ليست نهاية المطاف، فقد تنبئ المآلات بتضاؤل في القدر والقيمة والقامة لدرجة الخروج من عطاء عالم اللحظة الراهنة، والتقازم التام أمام آخر يتملك مقومات القوة والتجبر مكنته من انتهاز فرصة ضعفنا وتخاذلنا ليبث فينا كل نفاياته وسمومه ورجسه الأخلاقي فتفرقنا لا على مستوى الكيان العام، بل على مستوى كيان الدولة القطرية التي هي في سبيلها إلى التفتيت، ولم يبقى إلا إقامة حفل تأبين مأساوي بطبيعة الحال والشواهد أكثر من أن تحصى في بانوراما العبث العربي الراهن.

وقد يتسائل الإنسان ما علاقة واقع حال الأمة العربية بتعبير الإلحاد الفكري؟ الواقع أنّ العلاقة جد واضحة فتخل الأمة أية أمة عن مقومات الوجود الإنساني الحقيقي المتمثل في

يثير تعبير "الإلحاد" استياءًا وضيقًا انفعاليًا قد يصل بالمرء إلى درجة الغثيان، لارتباطه مباشرة بالإلحاد الديني، وهو أمر مستنكر وإن كان غير مستغرب في حياتنا المعاصرة

كنا وإلى وقت قريب نرفع أيدينا تضرعًا لله عند شهود تشييع جنازة شخص إلى مثواه الأخير ونردد تعبير "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إقرارًا بعبوديتنا وعبوديته لخالق بارئ مصور قادر ومقتدر رجاء عفوه ومغفرته

أصبحنا الآن مجبرون على ممارسة نفس الآلية لا على فقدان شخص بل على فقدان أمة تغنينا بمجدها وافتخرنا بمنجزها الإنساني لعقود طويلة

هل حقًا فقدت ما كنا نسميها الأمة العربية حقيقتها الوجودية فكرًا وإنجازًا إنسانيًا؟

الإجابة بنعم!! ومع ذلك نعم المفعمة بيأس مهين لخصوصية الحالة والظرف والسياق ليست نهاية المطاف

قد تنبئ المآلات بتضاؤل في

الكبرياء والشرف والحرية والكرامة على حد تعبير (مصطفي حجازي، 2015) تنكر إرادي لهمة الحياة، وارتضاء طوعي بالدونية، وخروج تام من فعاليات التأثير الإيجابي في المنجز الحضاري، وتجرع إجباري لمرارة التبعية والانقياد للآخر.

ورباعية الكبرياء ــ كتأصيل للعزة بالله ــ، والشرف ــ كانتساب لخير أمة أخرجت للناس ــ، والحرية ــ كدينامية تفعيل مضامين الكبرياء والشرف ــ ، والكرامة ــ كقيمة إنسانية يفقد الإنسان ماهيته بدونهاــ دون سريان مفعولها في عمليات الإنتاج العلمي رَقْمُ على الهواء وحَرْثُ في الماء، فبالعلم ترفع بلاءات منظومة الإهانة الوجودية للإنسان والمتمثلة في الجهل والفقر والمرض، ومخطئ من يتصور أن الاقتدار والجدارة دالة لامتلاك الموارد المادية، أو لا متلاك لافتات علمية لمكانات وظيفية متوهم أنها الأرقى في سلم التراتبية الأكاديمية في مجتمعات العبث العلمي التي هي بطبيعتها مضادة للتعلم الإنساني.

وتطرح فلسفات حياتية معاصرة في الوقت الحالي تؤكد على أن وجود المجتمعات يدور بقاءًا وعدمًا مع اقتصاديات المعرفة Knowledge Economics وهي فلسفة تجسد الاندفاع الإيجابي الإنساني السوي في مسار إنتاج العلم وامتلاك ما يعرف بسر الصنعة Knowing How?، واقتصاديات السعادة Happiness Economics التي تجعل الغاية النهائية للوجود البشري التنعم وراحة البال.

ولا يمكن تحقيق اقتصاديات المعرفة واقتصاديات السعادة دون صناعة الباحث المؤهل والممكن بكل مقتضيات الكفاءة والجدارة والاقتدار العلمي، وترتكز مثل هذه الصناعة على رباعية التعليم والتأهيل والإتاحة والثقة، والسؤال هل أكاديمياتنا العربية تعتمد مثل هذه الصناعة على مستوى منطلقاتها النظرية وهيكلتها البنيوية وإجراءاتها التنفيذية؟ أم تعتمد صناعة الاجترار والتغني بالماضي والتعبئة المعلوماتية المميتة لكل قابلية تفكير وانفعال وفعل إبداعي حقيقي يثمر إسهامًا إيجابيًا في بنية العلم؟

الإلحاد الفكري هنا منطلق يصلح لوصف وتفسير حالة الوعكة التعليمية والبحثية القابضة بتلابيبها على المنجز البحثي في الدراسات النفسية العربية التي هي في أحسن الأحوال اجترارًا مهينًا لعطاء الآخر الغربي لدرجة تثير الغثيان دون تجويد له أو إثراء لوسعه أو إضافة حقيقية تجعل لنا مكانة ومعامل تأثير حقيقي، وفي أسوأ الأحوال تنكر إرادي لقضايا الهوية والمصير فلا نجد دراسات بحثية تتعامل مع خصوصيات الحالة والظرف والسياق ربما لافتقاد الجدارة البحثية لدى كثيرٍ من الباحثين العرب، ولقصور مخزٍ في عمليات إعداد وتأهيل

القدر والقيمة والقامة لدرجة الخروج من عطاء عالم اللحظة الراهنة، والتقازم التام أمام آخر يتملك مقومات القوة والتجبر مكنته من انتهاز فرصة ضعفنا وتخاذلنا ليبث فينا كل نهاياته وسمومه ورجسه الأخلاقي فتفرقنا

تخل الأمة أية أمة عن مقومات الوجود الإنساني الحقيقي المتمثل في الكبرياء والشرف والحرية والكرامة على حد تعبير تنكر إرادي لهمة الحياة، وارتضاء طوعي بالدونية، وخروج تام من فعاليات التأثير الإيجابي في المنجز الحضاري، وتجرع إجباري لمرارة التبعية والانقياد للآخر

ترفع بلاءات منظومة الإهانة الوجودية للإنسان والمتمثلة في الجهل والفقر والمرض

مخطئ من يتصور أن الاقتدار والجدارة دالة لامتلاك الموارد المادية، أو لا متلاك لافتات علمية لمكانات وظيفية متوهم أنها الأرقى في سلم التراتبية الأكاديمية في مجتمعات العبث العلمي التي هي بطبيعتها مضادة للتعلم الإنساني.

أن وجود المجتمعات يدور بقاءًا وعدمًا مع اقتصاديات المعرفة Knowledge Economics وهي فلسفة تجسد الاندفاع الإيجابي الإنساني السوي في مسار إنتاج العلم وامتلاك ما يعرف بسر الصنعة Knowing How?، واقتصاديات

الباحث؛ فضلاً عن حالة الضمور الفكري الناتجة عن هشاشة التأسيس العلمي وميوعته.

ويعنى بالإلحاد الفكري في سياق الحديث عن وعكة الحالة البحثية في الدراسات النفسية العربية ما يلي:

1. الافتقاد للرؤية البحثية التي يتحدد في إطارها رسالة إيجابية لوضعية رسالة العلم في المجتمع، وتحدد وفقًا لها مهامه وأهدافه وإجراءاته.

2. الافتقاد إلى الهوية البحثية التي تميز قضايا الاهتمام البحثي في الحالة العربية ميزًا فارقًا عن الهوية البحثية للآخر الغربي؛ إذ غالبًا ما تعالج نفس الموضوعات ونفس القضايا ويركز على نفس المتغيرات دون ربطها بالسياق الثقافي الاجتماعي.

3. الإعلاء من قيمة الإجراء على الفكرة: فمهما كانت الفكرة المهم أن يُزَيْنْ الدراسة البحثية أشكال توضيحية وجدوال إحصائية، وخطوات تصب في قوالب نمطية جامدة لا سبيل للفكاك منها أو إعداد برمجتها بصيغة مغايرة.

4. التوظيف السلبي لقضايا الدراسات البحثية بحصرها في الترقي الوظيفي، ليصار إلى اعتبار الدراسات البحثية وسيلة تكسب للقمة العيش دون اعتبار يذكر لإثمارها الوظيفي في بنية العلم.

5. التجاهل التام لدراسات بناء المفاهيم وتأسيس النماذج النظرية لدرجة أنه لا يوجد نظرية أو نموذج علمي نظري يمكن نسبته إلى عالم نفس عربي إلا فيما ندر جدًا ولدرجة تتضائل معها استحقاقات الذكر إلا لعدد قليل لا يتجاوز أصابع اليدين.

6. إعلاء قيمة الإجراء على قيمة المضمون؛ مما يتعذر معه وجود تفسيرات واستنتاجات نظرية علمية تضاف إلى جسد العلم وبنيته، فكل ما هنالك قراءة للجداول والأشكال الإحصائية ووصفها وتفسيرها سطحيًا في ضوء مقولة اتفقت واختلفت دون الولوج في بنية التركيب النفسي والتراكيب المتداخلة معه والمرتبطة به.

7. وضع الباحث العلمي في العالم العربي تحت مظلة ما يعرف بالكفالة والوصاية، فلابد من وجود آخر أكبر سنًا ومقامًا علميًا يكفله ويفكر نيابه عنه ويحدد تصوراته ويكون وصيًا عليه، وهذا أمر إن تم بصورة إنسانية إيجابية وتمتع هذا الكفيل والوصي بالجدارة والاقتدار العلمي الحقيقي لكان أمرًا مقبولاً، أما أن يكون التجبر والتسلط وفقًا لمعيار الأقدمية والترقي الوظيفي هو الأساس والذي عادة ما يتم دون استحقاق أو جدارة بل يتم الترقي غالبًا وفقًا لفقه

السعادة Happiness التي تجعل Economics الغاية النهائية للوجود البشري التنعم وراحة البال.

لا يمكن تحقيق اقتصاديات المعرفة واقتصاديات السعادة دون صناعة الباحث المؤهل والممكن بكل مقتضيات الكفاءة والجدارة والاقتدار العلمي

الإلحاد الفكري هنا منطلق يصلح لوصف وتفسير حالة الوعكة التعليمية والبحثية القابضة بتلابيبها على المنجز البحثي في الدراسات النفسية العربية

لا نجد دراسات بحثية تتعامل مع خصوصيات الحالة والظرف والسياق ربما لافتقاد الجدارة البحثية لدى كثيرٍ من الباحثين العرب، ولقصور مخزٍ في عمليات إعداد وتأهيل الباحث؛ فضلاً عن حالة الضمور الفكري الناتجة عن هشاشة التأسيس العلمي وميوعته

يعنى بالإلحاد الفكري افتقاد للرؤية البحثية التي يتحدد في إطارها رسالة إيجابية لوضعية رسالة العلم في المجتمع، وتحدد وفقًا لها مهامه وأهدافه وإجراءاته

يعنى بالإلحاد الفكري افتقاد إلى الهوية البحثية التي تميز قضايا الاهتمام البحثي في الحالة العربية ميزًا فارقًا عن الهوية البحثية للآخر الغربي

المحسوبية والمعرفة الشخصية والفهلوة فكبر أربعًا على البحث العلمي الحقيقي.

8. التنكر لماهية صناعة الباحث العلمي والتي تعتمد رباعية التأسيس بالتعليم، والتأهيل، والإتاحة، والثقة، واستبدالها باعتماد استراتيجية الترخص والتساهل والإتجار بالبحث العلمي لدرجة أضحت معها بعض مؤسسات الدراسات العليا في المجتمع الأكاديمي العربي المعاصر أشبه بسوق تجاري تباع فيها الشهادات وتمنح فيه الدرجات العلمية لمن يعرف مسارات دفع الثمن.

9. اعتماد التلقيدية وإيثار السلامة في البحث العلمي بارتياد قضايا بحثية هامشية تقليدية مكررة، والتنكر للإبداعية مع الثرثرة عنها فكرًا وثقافة مع تجفيف منابعها ممارسة وسلوكًا.

10. الإعلاء من قيمة المشاهد والمادي والقابل للملاحظة والقياس على المعنوي والمجرد، مع التكبر على أثر المعنوي والمجرد وتسفيه ودوره، وتعالٍ على مقاصده بل ومحاربتها، وهذا ما يفعله بعض منا ممن يدَّعون بناءً لمستقبل، وهم في قطيعة مع كل المفاهيم المعنوية غير التقليدية، مع تسييد لآليات الإيمان بمجد الحجر لا بجدوى البشر، فالحجر عندهم ملموسٌ مثمنٌ.. وغيره غيبٌ لا وجود له.

11. غياب فقه الأقلام الثلاثة في تقييم الدراسات البحثية، لا تخلو أدبيات المجال من قوائم تحدد معايير صارمة للتقييم، إنما من ينفذ المعايير قد لا يتمكن من تجنيب ذاته وتحيزاته وفقًا لمضامين ما تقدم، لكونه يظن أنه لا معقب لأمره ولا راد لقضائه، وما هو واجب في التقييم استخدام ثلاثة وهي:

أ. **القلم الأحمر:**

جبلت النفس البشرية على سرعة التقاط الأخطاء وهذا أسهل ما في عملية التقييم، وعادة ما ترى الأوراق البحثية تحولت من اللون الأزرق إلى اللون الأحمر كأن كل ما فيها خطأ يستوجب الإدانة والشجب والإلغاء.

ب. **القلم الأخضر:**

ويصح تسميته قلم التوجيه والإرشاد بأن يحيل المقيم الباحث إلى كل ما يمكن أن يجود به بحثه؛ فضلاً عن وضعه للإطار التصنيفي الصائب لبرمجة عملية الكتابة وعنصرتها والاتفاق على طريقة إخراجها.

يعنى بالإلحاد الفكري إعلاء من قيمة الإجراء على الفكرة

يعنى بالإلحاد الفكري التوظيف السلبي لقضايا الدراسات البحثية بحصرها في الترقي الوظيفي

يعنى بالإلحاد الفكري التجاهل التام لدراسات بناء المفاهيم وتأسيس النماذج النظرية لدرجة أنه لا يوجد نظرية أو نموذج علمي نظري يمكن نسبته إلى عالم نفس عربي إلا فيما ندر جدًا

يعنى بالإلحاد الفكري إعلاء قيمة الإجراء على قيمة المضمون؛ مما يتعذر معه وجود تفسيرات واستنتاجات نظرية علمية تضاف إلى جسد العلم وبنيته

يعنى بالإلحاد الفكري وضع الباحث العلمي في العالم العربي تحت مظلة ما يعرف بالكفالة والوصاية

يعنى بالإلحاد الفكري التنكر لماهية صناعة الباحث العلمي والتي تعتمد رباعية التأسيس بالتعليم، والتأهيل، والإتاحة، والثقة، واستبدالها باعتماد استراتيجية الترخص والتساهل والإتجار بالبحث العلمي

يعنى بالإلحاد الفكري اعتماد التلقيدية وإيثار السلامة في البحث العلمي بارتياد قضايا

بحثية هامشية تقليدية مكررة

يعنى بالإلحاد الفكري الإعلاء من قيمة المشاهد والمادي والقابل للملاحظة والقياس على المعنوي والمجرد، مع التكبر على أثر المعنوي والمجرد وتسفيه ودوره، وتعالٍ على مقاصده بل ومحاربتها

يعنى بالإلحاد الفكري غياب فقه الأقلام الثلاثة في تقييم الدراسات البحثية

**ت. القلم الأزرق:**

ويصح تسميته بقلم الإضافات النسبية للمقيم؛ ويمثل الإثمار الإيجابي للاستاذ؛ فربما يصوب هو بذاته مفهومًا أو تصورًا أو يطرح رؤية قد تمكن الباحث من تجويد عمله.

إذن الإلحاد الفكري جحود عملى بقتل المعانى في البحث العلمي، وتجاهل لمفاهيم خصوصية الحالة والوضع الثقافي والقيمي، وتنكر للمنطق بغير منطق، فالغاية النهائية للبحث العلمي تجويد الواقع وتحسين نوعيته لا إقراره وإعادة إنتاجه بالصورة التي هي عليه، ودوران في فلك التقليدي والمكرور بغير حجة أو إثمار.

نحن أمة تطيل الركوع، وتطيل السجود & وتنتظر النصر من هية الأمم

* اسم مستعار

**التواصل عن طريق بريد الشبكة